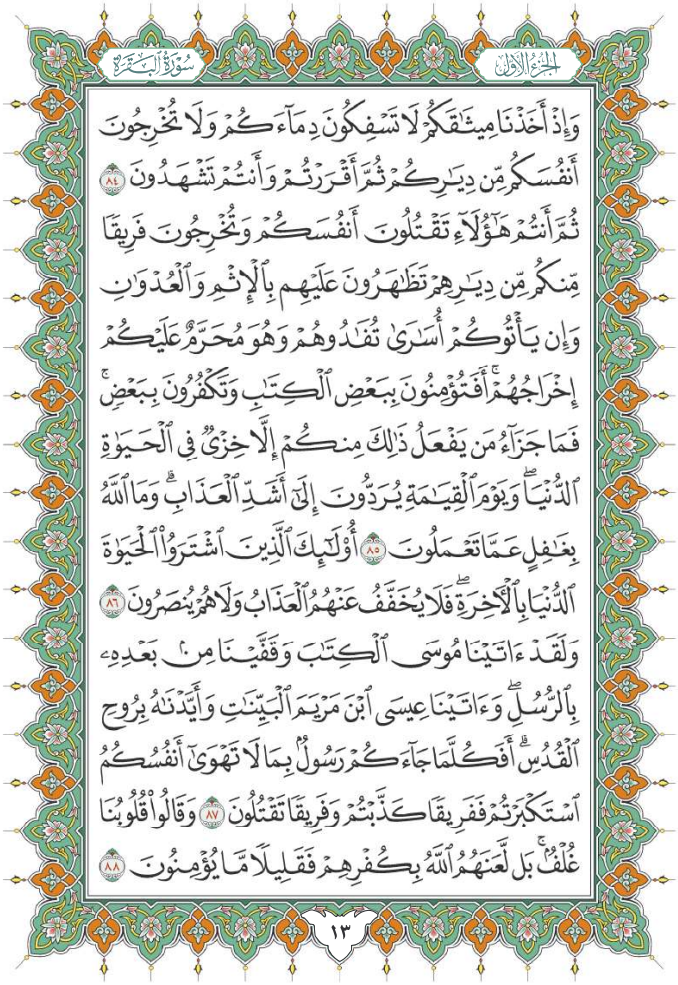

﴿٨٤﴾- وإذ أخذنا ميثاقًا عليكم في التّوراة ألا يسفك بعضكم دماء بعض، وأن لا تُخرجوا إخوانكم في الدّين من ديارهم، وهو ميثاق تقرّون أنّه في كتابكم وتشهدون على صحّته.

﴿٨٥﴾- وها أنتم أولاء يقتل بعضكم بعضًا، ويخرج فريق منكم فريقًا آخر من ديارهم متعاونين في ذلك عليهم مع غيركم بالإثم والعدوان، ثمّ إن وقع فريق منكم أسرى لدى من تتعاونون معهم تعملون على إنقاذهم من الأسر بافتدائهم، وإن سُئلتم عمّا حملكم على افتدائهم قلتم: لأنّ أسفارنا أمرتنا أن نفدي أسرانا من اليهود، أولم تأمركم أسفاركم كذلك ألّا تسفكوا دماء إخوانكم، وألّا تخرجوهم من ديارهم؟ أفتذعنون لبعض ما جاء في الكتاب وتكفرون ببعضه الآخر؟ فما عقاب من يفعل ذلك منكم إلا عار في الحياة الدّنيا، ويوم القيامة يردّهم الله - المطّلع على أعمالهم وسرائرهم - إلى أشدّ العذاب.

﴿٨٦﴾- وذلك لأنّهم قد آثروا أعراض الدّنيا الزّائلة على نعيم الآخرة الدّائم، وكانوا بهذا كمن اشترى الحياة الدّنيا بالآخرة، فلن يخفّف عنهم عذاب جهنّم، ولن يجدوا من ينقذهم منه.

﴿٨٧﴾- ولتذكروا كذلك- معشر اليهود- مواقفكم الضّالة الآثمة، حيال موسى ومن بعثناه من بعده إليكم من المرسلين. فلقد أرسلنا إليكم موسى وآتيناه التّوراة، وبعثنا إليكم على آثاره عدّة رسل، منهم عيسى ابن مريم الذي أمددناه بالمعجزات وشددنا أزره بروح القدس، وهو جبريل رسول الوحي الأمين، فكنتم كلّما جاءكم رسول من هؤلاء بما لا تهوى أنفسكم تستكبرون عن اتّباعه، ففريق كذّبتموه، وآخر قتلتموه.

﴿٨٨﴾- وكذلك كان موقفكم حيال رسولنا- محمّد ﷺ - خاتم النّبيّين. فلمّا دعاكم إلى الإسلام قلتم: إنّ قلوبنا مغلّفة بأغشية لا تنفذ إليها دعوتك، فلا نكاد نفقه شيئًا ممّا تقول. مع أنّ قلوبهم كما قال تعالى لم تكن كما يزعمون، ولكنّهم استكبروا وآثروا الضّلالة على الهدى، فلعنهم الله بكفرهم وأوهن يقينهم وأضعف إيمانهم.

الآيات 84 - 86

مخالفات اليهود الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة : لا تزال الآياتُ الكريمَةُ تعدّد جرائم اليهود، وفي هذه الآيات أمثلَةٌ صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، فقد نقضوا الميثاق الذي أُخِذَ عليهم في التّوراة، وقتلوا النّفس الّتي حرّم اللهُ تعالى، واستباحوا أكل أموال النّاس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدّين فأخرجوهم من الدّيار، فاستحقوا اللّعنة والخزي والدّمار. تنَوَّع الأسلوبُ القرآنيُّ في معالجة مساوئِ اليهود وقبائحهم، وترويضهم، ونقلهم إلى حالٍ أفضلَ من حالهم في الماضي والحاضر، ففي الآيات السّابقة عدَّد الله تعالى النّعم الّتي أنعم بها على بني إسرائيل، كتفضيلهم على العالمين، وإنجائهم -أي إنقاذهم- من الغرق، وإنزال المَنِّ والسَّلوى عليهم، ثمّ ما يحدث إثر كلّ نعمة من مخالفة، فعقوبَةٌ، فتوبَةٌ. ثم تذكّرهم هذه الآية بالعهد الّذي أخذه الله تعالى على آبائهم بالعمل بما أُمِروا به من عبادات ومعاملات، ثم إهمالهم له، وتركهم اتّباعه، وهذا كلّه ليبيّن الله لرسوله ﷺ ضعف انقطاع الأمل في إيمان اليهود المعاصرين له؛ لأنّهم يتوارثون عادَةَ التّطبّع بقبائح أسلافهم، فهي تمنعُهم من الهدى والرّشاد.

المناسبة التّاريخيّة المتجدّدة وسبب نزول الآية ٨٥: كانت ظاهرة سفك الدّماء وتقاتل اليهود وطرد بعضهم بعضًا من ديارهم قد تفشّت بينهم، وظلّت هذه الظّاهرة إلى عصر التّنزيل القرآنيّ. وكان تعالى قد أخذ على بني إسرائيل العهد في التّوراة ألا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، وأيّما عبد أو أمة من بني إسرائيل وقع أسيرًا اشتروه بما كان من ثمنه وأعتقوه، وكانت قبيلتا الأوس والخزرج تتحاربان في يثرب قبل الإسلام، فكانت قريظة حلفاء الأوس والنّضير حلفاء الخزرج، وكانوا يقتتلون فيعين بنو قريظة حلفاءهم الأوس، فيقاتلون بني النضير في قتالهم مع الخزرج، ويقتل اليهوديّ يهوديًّا آخر، فإذا غلبوا خرّبوا ديارهم وسرقوا ما فيها من الأثاث والمال وأخرجوهم منها، فإذا أُسر رجل من الفريقين جمعوا له حتّى يفدوه، فعيّرتهم العرب، فقالوا: تقاتلونهم وتفدونهم؟ فيقولون: قد أمرنا أن نفديهم وحُرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ فقالوا: إنّا نستحي أن يذلّ حلفاؤنا، فأنزل الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

المعـــنى العام

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

ومجدّدًا يقرّع تعالى اليهود من بني إسرائيل، ويُذكّرهم بنقض عهودهم في كلّ مرة قائلًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عهدًا عليكم، وقلنا لكم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لا يقاتل بعضكم بعضًا ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ جعلهم الحقّ تعالى نفسًا واحدة، وهذه حقيقة فقال ﷻ: ولا يخرج أحدكم أخاه ﴿مِّن دِيَارِكُمْ﴾ من داره ويجليه عنه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا العهد والتزمتموه لأنفسكم ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم بصدقه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ وها أنتم أيّها اليهود يقتل بعضكم بعضًا، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ إجلاء عنها، ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وتتغالبون عليهم بالظّلم والطّغيان، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾ مأسورين ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ تفدوهم بمالكم، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ مع أنّ إخراج إخوانكم من ديارهم محرّم عليكم أصلاً.

فذمّهم الله تعالى على مخالفة ما شرعه لهم في التوراة رغم تصديقهم بما جاء فيها؛ لهذا فهم لا يؤتمنون على حملها ولا على نقلها، هذا بالإضافة إلى كتمانهم ما عرفوه من صفة رسول الله ﷺ وغير ذلك من شؤونه التي أخبر بها الأنبياء قبله ﷺ، وما زال اليهود يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو القتل والإخراج؟ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي الذلّ والهوان في الحياة الفانية، وهو السّبيّ والقتل لبني قريظة، والجلاء والإخراج من الوطن لبني النّضير ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاءً على مخالفتهم كتاب الله الذي بين أيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ هذه الأحكام نزلت في التّوراة ليعمل بها المسلمون من بني إسرائيل، الثّابتون على دين موسى عليه السّلام وهو الإسلام، في وجه أعدائهم ممّن كفر من بني إسرائيل، لا أنّها نزلت ليعمل بها اليهود ضدّ المسلمين كما قد يتبادر إلى ذهن البعض، فموسى بريء من اليهود إلى يوم القيامة، والمسلمون في كلّ الأمم إخوة.

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ يقول تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ اليهود النّاقضون للعهود المتعدّون للحدود ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وزخارفها الغرّارة ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ الباقية الدّائمة، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ ساعة في الدّنيا بالذّلّ والهوان، وفي الآخرة بدخول النّيران ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بالامتناع منه في كلّ أوان.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. ما لكم تناصرون وتساندون من يقتل المسلمين ويخرجهم من ديارهم، ثمّ تتذّكرون أنّهم إخوانكم في الدّين، فترسلون إليهم المساعدات والإغاثات وتساعدونهم في إعادة الإعمار، وتزعمون أنّكم تفعلون ذلك لأنّهم مسلمون، وأنّ الله تعالى أمركم بذلك. ألم يأمركم الله كذلك ألّا تساعدوا أحدًا على قتالهم وإخراجهم من ديارهم، بل أن تدافعوا عنهم، فإنّ المسلمين أمّة واحدة .

٢. الشَّريعةُ كُلٌّ وفكر ودين متكامل فلا يجوز أن نطبّق بعضها ونعرض عن الآخر بحجّة أنّها لم تعد صالحة لهذا الزّمان، لأنّ هذه المقولةَ من أساسها باطِلَةٌ عِلْمِيًّا وواقعًا ومخالفة للعقيدة.

فمن جزّأ الشّريعة وهو يعتقد صحّة ما ذهب إليه فقد كفر بإجماع المسلمين وهو ما أشار إليه البيان القرآني ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. ومن جزّأها من حيث التّطبيقِ تكاسلًا وهو يعتقد صلاحيتها فقد فسق وانحرف.

٣. وجوب اتباع الرّسول ﷺ وطاعته والأخذ بسنّته. قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٢]. وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣] فخصوصيّة هذه الآية هي تركيب شرطيّ، ركناه: أداة الشرط "إن"، والفعل "كنتم تحبون"، والجواب "فاتّبعوني". وهذا الكلام يؤكّد قوّة وحقيقة التّلازم، بين حقّ الله تعالى في الطّاعة وحقّ الرّسول ﷺ في الاتّباع.

- ومن الآيات الآمرة بطاعة رسول الله ﷺ ما جاء فيها الأمر بطاعة رسول الله ﷺ مقرونًا بطاعة الله سبحانه وتعالى مع تكرار فعل " أطيعوا". ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٤].

ومن ذلك ما جاء فيه الأمر بطاعة رسول الله ﷺ مقرونًا بطاعة الله تعالى دون تكرار الفعل "أطيعوا" ممّا يدلّ بشكل قاطع على أنّ طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله ﷻ، وأنّه لا يحلّ التّفريق بين طاعته تعالى، وطاعة رسوله ﷺ. ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[٥]

- ومن الآيات الآمرة بطاعة رسول الله ﷺ ما جاء فيه الأمر بطاعة الرّسول ﷺ ابتداءً، دون أن يسبقه الأمر بطاعة الله سبحانه، وذلك يبيّن أنّ طاعة الرّسول ﷺ هي في الوقت نفسه طاعة لله تعالى لأنّه ما أمرنا إلّا بما يأمرنا الله به، وأنّ طاعة الرّسول وحدها مقياس لطاعة الله تعالى، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٦].

- ومن علامات طاعة رسول الله ﷺ واتّباعه، الأخذ عنه والاحتكام إليه، وتحكيمه في كلّ ما يُعرض لنا من شؤون الحياة، ثمّ الرّضا بما يحكم به، والإذعان والتّسليم له ﷺ. وقد جعل الله تعالى ذلك من علامات الإيمان، وجعل عدم الاتّصاف به من علامات الفسق والكفران، يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٧].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٤. (٢) سورة النساء، الآية: ٨٠. (٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٤) سورة محمّد، الآية: ٣٣. (٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٠. (٦) سورة النّور، الآية: ٥٦. (٧) سورة النّساء، الآية: ٦٥.

- ودلّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[١] على وجوب اتّباع أمره ولُزوم طاعته.
- إثبات أنّ السّنّة وحي من عند الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢] فهذه الآية نصٌّ قاطع في أنّ الرّسول ﷺ لا يأتي بشيء من عنده، وأنّ كلّ ما ينطق به في مجال التّشريع، إنّما هو وحيٌ من عند الله، سواء كان وحيًا من النّوع الأوّل وهو القرآن، أو من النّوع الثّاني وهو السّنّة النّبويّة.
- التحذير من مخالفة السنّة، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣] مُذكّرًا عباده أنّ المخالف لأمر النّبيّ ﷺ على خطر عظيم من أن تصيبه فتنة بالزّيغ والشّرك والضّلال أو العذاب الأليم.
- الفلاح لمتّبع السنّة، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤] مُذكّرًا أنّ الفلاح كلّ الفلاح لهؤلاء الّذين اتّبعوا النّبيّ ﷺ دون غيرهم، فدلّ ذلك على أنّ من أنكر سنّته ﷺ ولم يتّبعه، فقد حُرِم الفلاح في الدّنيا، وليس من المفلحين في الآخرة.
- لقد فرض الله تعالى على النّاس اتّباع وحيه وسنّن رَسُوله ﷺ، فَقَالَ فِي كِتَابه العزيز: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٥] وأن من أوضح الآيات على وجوب اتّباع الرّسول قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٦] فالضمير في الفعل هنا " إِذَا دَعَاكُمْ"، يعود إلى النّبيّ ﷺ خاصّة، وذلك لأنّ العطف في الآية لم يكن بالواو وحدها، إنّما كان بالواو مع اتّصال اللام بالرّسول ﷺ، ممّا يفيد انفكاك الجهة في مرجع الضّمير، فلم يقل استجيبوا لله والرّسول كما قال في سورة آل عمران، لأنّها واقعة حال وهو أسلوب خبريّ وليس إنشائيًّا، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾[٧]، أمّا في سورة الأنفال فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، فاتّصال اللام والتصاقها بالرّسول ﷺ هو ممّا يفيد مرجع الضّمير إليه ﷺ، والاستجابة للرّسول ﷺ لا تكون من جهة التّبعيّة، إنّما تكون من جهة الاستقلال بالأمر، ولو قال قائل إنّ الضّمير في قوله تعالى" إِذَا دَعَاكُمْ" ضمير مشترك أي يعود إلى الله والرّسول لأشكل الأمر، فعن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: "كُنْتُ أُصَلِّي، فَدَعَانِي النّبيّ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، قَالَ:" أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟[٨]"[٩]، فاستدلال النّبيّ ﷺ أو استئناسه بذكر هذه الآية، هو ممّا يفيد استقلاليّته بعود الضّمير، والضّمير لا يعود إلا إليه، وإلا لو كان الضّمير مشتركًا، لما جاز في حقّه ﷺ أن يقدّم حقّه ﷺ على حقّ الله تعالى في الأداء، سيّما وقد علم أنّ الرجل كان يصلّي، فلا بدّ من التّأكيد على أنّ الضّمير في قوله تعالى " إِذَا دَعَاكُمْ" يعود إلى النّبيّ ﷺ وحده، وهو من أجلّ وأعظم الأدلّة على وجوب الأخذ بالسّنّة الشّريفة، وذلك لأنّ حفظ الله تعالى للكتاب لا يكتمل الشّأن فيه، إلا بحفظ بيانه ﷺ لما أُنزل عليه من الكتاب.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٢) سورة النّجم، الآية: ٣-٤.
(٣) سورة النّور، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.
(٨) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٩) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي سعيد بن المعلّى، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، حديث رقم: ٥٠٠٦.

س هل أركان الدّين الثّلاثة (إسلام، إيمان، وإحسان) قابلة للتّقصير والمخالفة، أم لا؟

ج إنّ بعض أركان الدين قد يحتمل شيئًا من التّقصير، دون أن يُخرج صاحبه من دائرة الإسلام. ولكنّ بعضها الآخر لا يحتمل أدنى شيء من المخالفة، فإذا وقعت المخالفة أو التقصير في أحد الأركان، خرج مقترفه من دائرة الإيمان، وصُنّف من أهل الكفر حتّى يتوب.

الرّكن الاعتقادي (الإيمان): لا هوادة في شيء منه بحال، فمن أنكر شيئًا من مفرداته الثّابتة بيقين، لم يعد مسلمًا؛ ذلك أنّ عقيدة الإسلام لا تقبل التّجزئة والتّقسيم، فمن اعتقد بها كلّها، صحّت عقيدته وكان مسلمًا، ومن آمن ببعضها وكفر ببعضها الآخر، عاد الجزء الذي كفر به فنقض الجزء الذي آمن به؛ لأنّ عقيدة الإسلام بدأت من الإيمان بالله، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بكمال صفاته، وذلك يستلزم تصديقه في ملائكته وكتبه ورسله وأخبار الغيب، فمن أنكر شيئًا من ذلك فقد أنكر كمال صفات الله؛ ومن فعل ذلك لم يكن بالله عارفًا ولا مؤمنًا. وقد بيّن تعالى كفر اليهود، إذ آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

أمّا التّقصير في بعض الفرائض واقتراف بعض المعاصي (مع الاعتراف بالخطأ)، فلا يخرج الإنسان من دين الإسلام، وكمخالفة بعض الأخلاق المحمّديّة.

من كفر بشيء ممّا يجب الإيمان به أصبح كافرًا

يُطلق اسم كافر على كلّ من أنكر شيئًا ممّا عُلم من الدّين بالضّرورة. فمن اعتقد ألوهيّة بعض البشر، أو بأنّ الله ثالث ثلاثة، فهو قطعًا كافر دون أي محاباة. ذلك أنّه كفر بأصل من أصول العقائد الحقّة؛ ولذلك نَسَبَ الله تعالى في القرآن الكريم الكفر إلى النّصارى واليهود ممّن يعتقد ذلك، فقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. ويُسمّى كافرًا كلّ من اعتقد بعدم فرضيّة الصّلوات الخمس في الإسلام، أو من أنكر شيئًا من القرآن الكريم الثّابت بالتّواتر، أو اعتقد بإباحة الزّنى أو القتل أو شرب الخمر أو نحو ذلك، لأنّ هذه ونظائرها ممّا هو معلوم من الدّين بالضّرورة، فمنكرها كافر لا محالة؛ كما خاطب الله اليهود بأنّهم كفروا لأنّهم آمنوا ببعض الكتاب، ولم يؤمنوا ببعضه الآخر، فقال ﷻ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...﴾[3].

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- عن عمر بن زودي قال: خطبهم عليّ رضي الله عنه فقطعوا عليه خطبته فقال: **"إِنَّمَا وَهَنْتُ يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ رضي الله عنه، وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا، مَثَلَ ثَلَاثَةِ أَثْوَارٍ وَأَسَدٍ اجْتَمَعْنَ فِي أَجَمَةٍ أَسْوَدَ وَأَحْمَرَ وَأَبْيَضَ، وَكَانَ الْأَسَدُ إِذَا أَرَادَ وَاحِدًا مِنْهُنَّ اجْتَمَعْنَ عَلَيْهِ فَامْتَنَعْنَ عَلَيْهِ، فَقَالَ الْأَسَدُ لِلْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ: إِنَّمَا يَفْضَحُنَا فِي أَجَمَتِنَا، وَيُشْهِرُنَا هَذَا الْأَبْيَضُ، فَدَعَانِي حَتَّى آكُلَهُ، فَلَوْنُكُمَا عَلَى لَوْنِي، وَلَوْنِي عَلَى لَوْنِكُمَا، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْأَسَدُ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَتَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لِلْأَسْوَدِ: إِنَّمَا يَفْضَحُنَا وَيُشْهِرُنَا فِي أَجَمَتِنَا هَذَا الْأَحْمَرُ، فَدَعْنِي حَتَّى آكُلَهُ، فَلَوْنِي عَلَى لَوْنِكَ، وَلَوْنُكَ عَلَى لَوْنِي، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ قَالَ**

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥. (٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣. (٣) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

للأَسْوَدِ: إِنِّي آكُلُكَ قَالَ: دَعْنِي أُصَوِّتُ ثَلَاثَةَ أَصْوَاتٍ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّمَا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الْأَبْيَضُ، أَلَا إِنَّمَا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الْأَبْيَضُ، أَلَا إِنَّمَا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الْأَبْيَضُ، أَلَا إِنَّمَا وَهَنْتُ يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ"[1].

في هذا المثل، ينقل سيّدنا عليّ بن أبي طالب ﷺ قصّة مجازيّة يشبّه فيها حال المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ بحال ثلاثة ثيران، أسود وأحمر وأبيض، تعيش معًا في أجمة (غابة صغيرة)، يحاول أسد افتراسها.

شرح القصّة المجازية:

القوّة في الاتّحاد: كانت الثيران الثلاثة متّحدة فيما بينها، فكلّما حاول الأسد الهجوم على أحدها كانت الثيران الثلاثة تتّحد وتدافع عن بعضها، ممّا يجعل افتراسها مستحيلاً على الأسد.

التفرقة لتحقيق المصلحة الشخصيّة: أدرك الأسد أنّه إذا أراد افتراس الثيران، عليه أن يفرّق بينها. لذا بدأ بإقناع الثور الأسود والأحمر بأنّ الثور الأبيض يشكّل خطرًا عليهما بسبب لونه المختلف الذي يصعب إخفاؤه في الأجمة، وأنّهم إذا سمحوا له بأكل الأبيض فسيسهل عليهم الاختباء ويبقون في أمان، فوافقا، فهجم الأسد على الثور الأبيض وأكله.

التدرّج في القضاء على الضعفاء بعد الاستفراد بهم: بعد قتل الثور الأبيض، عاد الأسد ليقنع الثور الأسود بأنّ الثور الأحمر يسبّب المشكلة نفسها، وأقنعه بالسماح له بأكله. فهجم على الثور الأحمر وأكله.

العاقبة المحتومة: عندما أصبح الثور الأسود وحيدًا، لم يعد له حماية من الأسد، وعرف أنّ دوره قد جاء ليكون الفريسة. في هذه اللحظة، أدرك الثور الأسود أنّ ضعفه بدأ يوم قَبِل بقتل الثور الأبيض وتخلّى عن زميله، فقال: "إِنَّمَا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الْأَبْيَضُ"، أي أنّه لو لم يقبل التفريط بزميله الأوّل لما وقع في هذا المصير.

الدرس المستفاد: هذا المثل يوضّح العواقب الوخيمة للتفرقة والانقسام بين الأفراد والجماعات. فعندما تخلّى بعض المسلمين عن الدّفاع عن عثمان بن عفّان ﷺ وتعرّض للقتل، كانت تلك بداية الوهن والضعف في صفوفهم. يشير عليّ ﷺ إلى أنّ مقتل عثمان ﷺ كان نقطة فارقة ضعفت الأمة من بعدها، لأنّه حينما يضعف التعاون والتضامن، يصبح الجميع عُرضة للخطر.

فمع أنّ أمير المؤمنين عليًّا ﷺ لم يخذل سيّدنا عثمان- ذا النّورين- قطّ، ولا تراخى في الدّفاع عنه قيد شعرة، إلّا أنّه ندم في أنّه أصغى لكلام عثمان ﷺ بالكفّ عن الدّفاع عنه فيما بعد، رغم أنّه أرسل ولديه المغوارين الحسن والحسين، وقد توشّحا سيفيهما عند الدّار للدّفاع عنه.

وفي هذه القصّة عبرة لكلّ مسلم في أنّه إن خذل أخاه في أيّ موطن مع القدرة على المساعدة، ولو بمجرّد الدّعاء، فهذا يُعدّ خذلانًا لنفسه، لحديث رسول الله ﷺ: **«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[2].

- اسعَ في فكّ أسير أو سجين مظلوم بشفاعة، أو بتقديم مال، أو بدعوة صالحة في جوف الليل، أو في ساعة إجابة، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾[3]. فكم من سجين قابع في السّجون بسبب تأخير في دفع غرامة أو رسوم إداريّة، أو دفع كفالة، فإذا قمت بدفع ما عليه، وفككت أسره فهذا من باب مصارف الزّكاة.

---

(١) رواه الطّبرانيّ في المعجم الكبير، عن عمير بن زوديّ، كتاب: نسبة عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه، باب: سن عثمان ووفاته رضي اللّه عنه، حديث رقم: ١١٣.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن عمر، كتاب: المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: ٢٤٤٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

- يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

حضّ تعالى في هذه الآية الكريمة جميع المسلمين على التّعاون على البرّ والتّقوى، ونهى عن التّعاون على الإثم والعدوان. "والبرّ": هو اسم جامع، لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأعمال الظّاهرة والباطنة، من حقوق الله، وحقوق الآدميّين. "والتّقوى" في هذه الآية: اسم جامع لترك كلّ ما يكرهه الله ورسوله من الأعمال الظّاهرة والباطنة".

- السبب الأساسي في الإعراض عن شرع الله تعالى هو التّعلّق بالدُّنيا وجعلها غاية وهدفًا حتى يمتلأ القلب بحبّها ويميل إلى شهواتها وزخارفها، ولذا المقطع القرآني بـ (أولئك الذين اشتروا الحياة الدُّنيا بالآخرة) فحبّ الدُّنيا رأس كل خطيئة كما جاء في الحديث الشريف، ولذا حذَّر رسول الله ﷺ أمّته من التعلّق بالدُّنيا، فقال: ((فَوَاللهِ لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ))، فالتّعامل مع الدُّنيا أمر مطلوب شرعًا، ولكن على أن تكون وسيلة للبناء والتّرابط والتّكافل، لا على أن تكون هدفًا وغاية في حدِّ ذاته تستعمل في سبيل تحقيقها كل الطّرق المشروعة وغير المشروعة، بحيث يصبح المرء لا يجد أي حرج في سفك الدّماء والبطش بكل مَنْ تُسَوِّلُ له نفسه بمنافسته فيها، وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ.

في الأخلاق والآداب

س: لماذا قال الله تعالى ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ مع أنّ المراد قتل الغير؟ وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ مع أنّ المراد إخراج الغير.

ج: إن الله تعالى يخاطب الجماعة المؤمنة على أنّها وحدة واحدة فسمّى قتل مجموعة بعضهم بعضًا قتلًا لأنفسهم، لأنّ المؤمن مع أخيه كالنَّفس الواحدة، يُحزنه ما يُحزنه، ويفرحه ما يُفرحه، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "«لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»"[3].

التّوجيهات:

الإيمان بالله سبحانه هو الرّضى بالدّين كاملًا، أمّا انتقاء بعض الأحكام وردّ البعض الآخر، نوع من النّفاق والعياذ بالله. واليهود غير مؤتمنين على التّوراة التي بين أيديهم؛ فكيف يؤتمنون على غيرها من المعاهدات والمواثيق، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢. (٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن النعمان بن بشير، كتاب: البرّ والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: البرّ والصلة والآداب، باب: تحريم الظنّ، والتجسّس، والتنافس، حديث رقم: ٢٥٦٣.

في السّيرة والشّمائل

في السّلوك

الإشارة: الأُسَرَاء أصناف: فَمِنْ أسير غَرِقَ في بحار الهوى فإنقاذُه بأن تدلَّه على الهُدَى. وأسير بقي في أيدي الوساوس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذَه من الشّكّ والتّخمين، وتخرجه عن ظلمات التّقليد فيما تقوده إلى اليقين. ومن أسيرٍ تجده في أسر هواجسه استأسرته هواجس نفسه، فَفَكُّ أسْرِهِ بأن تدلَّه على شهود المِنن، بِتَبَرِّيه عن حسبانِ كلِّ حَوْلٍ بِخُلُقٍ وعِير. ومن أسيرٍ تجده في ربيطة ذاته ففكُّ أسره إنشاده إلى إقلاعه، وإنجاده على ارتداعه. ومن أسير تجده في أسر صفاته فَفَكُّ أسْرِه أن تدلّه على الحقّ بما يحلّ عليه من وثائق الكون، ومن أسيرٍ تجده في قبضة الحقّ فتخبره أنّه ليس لأسرائهم فداء، ولا لقتلاهم عَوْد، ولا لربيطهم خلاص، ولا عنهم بُدٌّ، ولا إليهم سبيل، ولا مِنْ دونهم حيلة، ولا معَ سِواهم راحة، ولا لحكمهم رَدٌّ.

يتحدّث الإمام القشيري عن "الأسر" بمعنى الحالات الروحيّة والنفسيّة التي تأسر الإنسان، ويصنّف هذه الحالات إلى أنواع مختلفة من "الأسرى"، ويصف كيفيّة تحريرهم روحيًّا من تلك القيود. وفيما يلي تفسير مختصر لكلّ صنف من الأسرى كما ورد في النصّ:

- **أسير الهوى:** هو الشخص الذي تسيطر عليه الشهوات والأهواء الدنيويّة. لتحريره، ينبغي أن يُرشد إلى الهداية، حتّى يرى الطريق الصحيح ويتخلّى عن التعلّق بالمغريات الدنيويّة.
- **أسير الوساوس:** هو من يعاني من الشكوك والتردّد في إيمانه وعقيدته. تحريره يكون بإرشاده إلى اليقين عبر الحجج والبراهين التي تثبت له الحقائق الدينيّة وتساعده على التخلّص من التقليد الأعمى للوصول إلى إيمان راسخ.
- **أسير الهواجس:** هو الشخص الذي تتحكّم فيه أفكاره السلبيّة والأوهام النفسيّة. فكّ أسره يكون بتوجيهه إلى التفكّر في نعم الله وترك الاعتماد على قوّة البشر أو غيرهم، مع إدراك أنّ القوة الحقيقيّة والرزق كلّه بيد الله.
- **أسير الذات:** هذا الشخص مأسور بنفسه وأنانيّته. تحريره يكون بتوجيهه إلى التوبة الصادقة، والتخلّص من الغرور وحبّ الذات، ليتمكّن من السيطرة على شهواته والرجوع إلى الله.
- **أسير الصفات:** هذا الشخص هو أسير صفاته وأخلاقه المذمومة. تحريره يكون بإرشاده إلى معرفة الحقّ من خلال التأمّل في الكون، حتّى يدرك أنّ الصفات الإنسانيّة محدودة وأنّ عليه أن يسعى للتعرف إلى صفات الله تعالى والتخلّص من قيود الصفات السلبيّة.
- **أسير قبضة الحقّ:** هو الشخص الذي يصل إلى درجة عالية من القرب من الله حتّى يصبح في "قبضة الحقّ" حيث يكون مأسورًا بالكامل لله. هذا الأسر لا فكاك له ولا عودة منه، لأنّه أسر في حبّ الله وقربه، حيث لا يمكن له الرجوع إلى عالم الدنيا وأوهامها؛ بل هو أسير للحقيقة المطلقة التي لا سبيل للفكاك منها.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

اللَّهُمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خيرٍ، واجعل الموتَ راحةً لي من كل شرٍّ.

(١) الإمام القشيري.